

العنوان:	وجدة والمدينة الأوروبية الوسيطة
المصدر:	مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية
الناشر:	جامعة محمد الأول - كلية الآداب والعلوم الإنسانية
المؤلف الرئيسي:	بوتشيش، إبراهيم القادري
المجلد/العدد:	ع3
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1992
الصفحات:	71 - 95
رقم MD:	599870
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	HumanIndex, AraBase
مواضيع:	التاريخ المقارن في الإنتاج المغربي ، وجدة في التاريخ المغربي المقارن ، المدينة الأوروبية الوسيطة
رابط:	https://search.mandumah.com/Record/599870

وجدة والمدينة الاوربية الوسيطة

الاستاذ: ابراهيم القادري بوتشيش *

كلية الآداب . مكناس

من المسلم به أن التاريخ المقارن - في الانتاج المغربي على الاقل - لم يظفر بعد بدراسات وافية ومتكاملة. ويعزى ذلك، دون شك، الى المهمات التي اضطلع بها جيلا المدرسة الوطنية في مرحلة ما بعيد الاستقلال، ومدرسة التاريخ الاجتماعي في الفترة الراهنة إذ عول الاوائل على مقارعة التخريجات الاجنبية ودحضها، في حين وجه الآخرون همتهم - متأثرين بمدرسة الحوليات - الى دراسة الجوانب الدقيقة من تاريخ المجتمعات (1) وإن كان من الانصاف القول أن تباشير التاريخ المقارن بدأت تلوح من خلال بعض الابحاث الجامعية الجديدة (2).

ونحن في غنى عن القول أن الدراسة المقارنة تطرح جملة من الصعوبات تتباين حدتها حسب مختلف العصور والحقب التاريخية. فاذا كان مؤرخو التاريخ الحديث والفترة المعاصرة يمتلكون من الادوات ما يجعلهم يطمنون الى نتائج أبحاثهم، فان نظراهم في التاريخ الوسيط لا ينعمون بمثل هذا الامتياز، مما يحتم الخوض في هذا الجانب ضمن مختلف القضايا المطروحة في هذه الاشكالية.

وتتمحور تلك الصعوبات إجمالا حول الادوات الاجرائية والمفاهيمية، ويمكن تلمسها على الشكل التالي:

(1) عندما تطرح المدينتان الاوربية والمغربية كموضوع للدراسة المقارنة في العصر الوسيط فان المشكل يبدأ وينتهي في الجانب الثاني. وآية ذلك أن المدينة الاوربية حظيت بسيل من الوثائق التي لازالت تحتفظ بها أرشيفات، البلديات أو الكنائس والمتاحف البابوية (3)، في حين أن المدينة المغربية لم تنعم بهذا الحظ، إذ أن معظم الوثائق عصفت بها أيادي الدهر، أو تم

(1) انظر المداخلة التي شارك بها الاستاذ الباحث محمد منصور في الندوة القومية لكتابة التاريخ العربي المنعقدة في بغداد - ديسمبر 1987. ص 5 وما بعدها من القسم المرقون.

(2) لاحظ ذلك من خلال بعض الرسائل والاطروحات المسجلة يقسم التاريخ بكلية الآداب بالرباط وخاصة الاطروحة المسجلة تحت عنوان: إشكالية التجاوز بين المغرب والغرب بين القرنين 16 و 18 للباحث عبد المجيد القدوري.

(3) انظر على سبيل المثال: Les Archives municipales de Bordeaux وكذلك
Les Archives départementales de la Gironde.

طمسها وإتلافها تحت تأثير الصراعات السياسية والحزابات المذهبية.

ويزداد المشكل حدة وتعاطفا الى درجة الفقر المدقع عندما يتعلق الامر بمدينة هامشية كمدينة وجدة التي تدخل في عداد "أمصار القاصية" على حد تعبير ابن خلدون (4). أما النصوص فانها تتميز بالشحة والتقتير والقليل النادر منها يتناثر ويتشتت في بطون الحوليات التاريخية والجغرافية. وفي كل الاحوال، فانها لا تكفي لتقديم أجوبة شافية لعناصر المقارنة المطروحة.

وقد سبق أن أبرزنا في إحدى الدراسات السابقة (5) العوامل الكامنة وراء شحة النصوص الخاصة بمدينة وجدة نرى ضرورة التذكير بها في عجالة لارتباطها بالموضوع المطروح. فوجود المدينة في موقع « طرف مغربي » ساهم في تهميشها حيث لم تحظ باهتمامات المؤرخين المغاربة الذين أداروا ظهرهم لها، بينما أولوا عنايتهم للحواضر السلطانية أو مراكز العلم كفاس ومراكش والرباط، هذا في الوقت الذي لم تظهر فيه وجدة في المصنفات المشرقية الاولى، وسبب ذلك يكمن في أن التدوين التاريخي ظهرت طلائعه في القرن الثالث الهجري في مرحلة لم تكن المدينة قد ظهرت الى الوجود في المرحلة الاسلامية.

ولا يقلل من هذا الحكم كونها أصبحت في عصر الزيريين عاصمة سياسية، ذلك أن الدور السياسي الذي أمته سرعان ما نخرته عوامل الضعف والوهن، وفقد مناعته بانتهاء دور مؤسسها زيري بن عطية الذي حصدت زهرة دولته جحافل الجيوش الاموية الاندلسية. ناهيك عن منافسة جارتها تلمسان التي جاوزت إشعاعها وأهميتها، مما جعل أنظار المؤرخين تتحول عنها، وهو تحول ناتج عن تزايد أهمية تلمسان الاقتصادية حتى أن الادريسي (6) اعتبرها « قفل بلاد المغرب »

وإذا كان المؤرخون وغيرهم قد أهملوا ذكر مدينة وجدة، فإن أبناء المدينة أنفسهم لم يخلفوا - حسبنا نعلم - وثيقة أو مخطوطا في العصر الوسيط يمكن اللجوء اليه لتبديد غيوم هذه الضائقة على صعيد « المادة الخام »، وحسبنا أن صاحب دليل مؤرخ المغرب الاقصى عدد جملة من المصنفات التاريخية حول مناطق ومدن وقبائل مغربية فلم يشر الى مصدر خاص بمدينة

(4) المقدمة طبعة بيروت 1979 ص 308.

(5) انظر الملاحظة التي ساهم بها صاحب البحث في ندوة المغرب الشرقي بين الماضي والحاضر مارس 1986 وهي تحت عنوان: "تساؤلات حول غياب الفئات الشعبية من تاريخ المغرب الشرقي الوسيط".

(6) صفه المغرب طبعة لندن 1894 ص 82.

(2) أما الاشكالية الثانية التي تعترض سبيل الدراسة المقارنة فتكمن في صعوبة تحديد دقيق لمفهوم المدينة. فلو تعلق الامر بمدينتين مغربيتين أو إسلاميتين لأمكن تسخير عدد من الادوات الاجرائية للمقارنة مادام مفهوم المدينة يعد قاسما مشتركا بينهما. غير أن المشكل يحتد عندما يكتسي موضوع المدينة الصبغة "العالمية" حيث تتعدد المفاهيم، وتتباين مقومات المدن.

لقد حاول «ماكس ثيبر» أن يحلل شروط وجود المدينة (8) لكنه لاحظ اختلاف الكيفيات التي ينجم عنها ظهور المدن (9)، وانتهى الى القول أنه «ليس هناك شكل صاف وواحد في المدن القائمة، بل إن المدن قامت واستمرت على أساس امتزاج عدة أشكال» (10).

ولا يخامرنا شك في أن الجانب الحضاري لعب دورا في تباين هذه المفاهيم فاذا كان اللغويون الاوروبيون يفسرون مصطلح المدينة Ville بأنه «تجمع هام يمارس فيه السكان أنشطة مهنية مختلفة» (11) فان اللغويين العرب ينحون منحى آخر فالمدينة عند صاحب «لسان العرب» (12) هي من «مدن بالمكان أي أقام به» بينما يصيغ عليها صاحب كتاب «تحفة الرائع» الصبغة الدينية حين يفسرها بأنها مشتقة من «دان» إذا أطاع والدين الطاعة فتكون الميم على هذا زائدة (13).

ويذهب بعض الفقهاء - الاحناف منهم على الخصوص - الى اشتراط إقامة الجمعة في المدن التي تقام فيها الحدود، ومن ثم فان مفهوم المدينة في الاسلام يصيح هو المكان الذي تستوفى فيه أسباب العدل، وبذلك قصرُوا اسم المدينة على مقر السلطان أو من يقوم مقامه من العمال والولاة (14).

(7) انظر ابن سودة: دليل مؤرخ المغرب الاقصى ج 1 من ص 27 الى ص 121 .

(8) المدينة، معناها وشروطها ص 9 مجلة الفكر العربي العدد 29 أكتوبر نوفمبر 1982

(9) نفسه ص 10

(10) نفسه ص 12، أبو العباس وأزمة المدينة العربية طبعة الكويت 1980 ص 88

(11) LAROUSSE, mat. ville, 941, ed 1988

(12) ابن منظور : لسان العرب ج

(13) نقلا عن طه حسين الولي: المدينة في الاسلام ص 111 مجلة الفكر العربي، العدد 29، أكتوبر، نوفمبر 1982

(14) نفسه ص 113

وفي نفس السياق، يربط ابن خلدون معنى المدينة بسيادة الدولة فيها وتثبيت دعائمها حفاظا على الأمن والاستقرار وإقامة الحدود. فالمدينة حسب المفهوم الخلدوني مرتبطة بوجود السلطة الحاكمة فيها، فحيث تكون السلطة المركزية بمؤسساتها الادارية والتنفيذية والقضائية تكون ثمة المدينة (15).

كل ذلك يقيم الحجة على أن الاسلام أعطى دلالة خاصة للمدينة الاسلامية وضمنها وجدة بداية، كما أن شريعته ستعمل على صقل أهم مؤسساتها، وتوجه الكثير من أنشطتها ضمن المبادئ والقيم التي سنّها الدين قواعدا لمصلحة سكانها ورغد عيشهم. وليس غريبا أن تتمتع المساجد بمكانة عالية في روح المدينة وهيكلها العام وتؤثر مباشرة في حياتها الحضرية (16). وبذلك يمكن القول أن الاسلام أعطى لمدينة وجدة شخصيتها المتميزة وطبعها بطابع خاص، مما يجعل إمكانية المقارنة قبيل الى التعقيد أكثر من التبسيط.

(3) أما الصعوبة الثالثة فهي ذات طبيعة منهجية. ذلك أن الدراسة المقارنة الرصينة والمحترمة، تستلزم توظيف طرق ومناهج علمية نعتقد أن البحث العلمي خاصة في حقل التاريخ لازال في أمس الحاجة اليها كتوظيف السيميولوجيا - انطلاقا من تجربة رولان بارت (17) - لاستنطاق الدلالات الكامنة وراء الشواهد المادية التي تتركها مدينة وجدة. كما أن الاركيولوجيا والحفريات وهي أدوات تساعد على المقارنة لم تخط في الميدان التاريخي سوى خطوات شاحبة.

ورغم هذه الصعوبات، سنحاول اقتحام الموضوع في ضوء المادة والامكانيات المتاحة لمحاولة القيام بدراسة مقارنة متواضعة لنصل بعد ذلك الى تفسير عوامل بقاء وركود المسار التاريخي للمدينة موضوع الدراسة، وسنقصر اهتمامنا على أربعة جوانب:

أولا : التأسيس والنشأة:

عند مقارنة تأسيس وجدة ونشأتها مع أي مدينة أوروبية، تستوقفنا مسألة سبق طرحها من قبل بعض الباحثين (18). وهي المتعلقة بتاريخ تأسيس المدينة وعما اذا كان زيري بن

(15) نفسه ص 114

(16) منهية : التكوين الوظيفي للمدينة الاسلامية ص 136 مجلة الفكر العربي. العدد 29 أكتوبر نوفمبر 1982

(17) السيميّا والتحديث: ترجمة محمد حمود . ص 162 وما بعدها، نفس المجلة والعدد.

(18) الورطاسي: المطرب في تاريخ شرق المغرب. الرباط 1984 ص: 8. معالم من تاريخ وجدة الرباط 1972 ص 1

عطية أول من أنشأها، أم أنها تضرب بجدرها في القدم.
ومن خلاصة النتائج التي توصل إليها هؤلاء يتبين أن المدينة أنشئت قبل دخول الاسلام الى المغرب من طرف بني يفرن أمراء تلمسان، ثم بنيت ثانية على يد زيري المذكور.
ومن الثابت كذلك أن المدينة انقسمت الى قسمين: قسم قديم وهو الذي أحدثه زيري به عطية، وقسم حديث وهو الذي بناه يعلى بن بلجين الورتغيني في العقد الرابع من القرن الخامس الهجري، وهذا ما يؤكد الجغرافيون والرحالة المتقدمون (19) والمتأخرون (20).
ويبدو أنه حين عزم زيري بن عطية على تأسيس مدينته، كان موقع وجدة القديمة قد اندثر، أو أن هذا البناء كان في موقع جديد غير الموضع القديم بدليل قول ابن خلدون (21) " واختط مدينة وجدة". ولا شك أن التخطيط يعني بناء جديدا ضمن تصميم جديد.
غير أن ما يهمنا هو نشأتها الثانية "الاسلامية". وفي هذا الصدد نتساءل عن عناصر الاختلاف بينها وبين النشأة التي عرفت نظيرتها في أوروبا.

إن المدينة الأوروبية - كما يجمع على ذلك الدارسون - نشأت في أحضان النظام الاقطاعي، ذلك أن الأمراء الاقطاعيين سمحوا لبعض التجار بالاقامة جوار حصونهم سعيا وراء بعض المصالح المادية التي يجنونها منهم وفي مقدمتها الضرائب، وبهذه الخطوة تمكن التجار من إقامة حظائر مسورة بجانب الحصون، فكانت بذلك النواة الاولى التي أعطى تطورها بداية انبعاث المدن (22).

ولا سبيل الى الشك في أن ميلاد المدينة الأوروبية في العصور الوسطى ارتبط بدينامية النشاط التجاري، وبرز طبقة التجار، كما أن هناك عوامل أخرى ساعدت على انتعاش هذه المدن وظهورها منها حالة الاستقرار والسلم التي خيمت على أوروبا في القرن 11م، موفرة بذلك المناخ الملائم للتجار وبالتالي لنمو المدن وازدهارها.

ولا شك أن الازدهار التجاري الذي زادتته الحروب الصليبية دعما، استطاع أن يخلخل نظام الاقطاع ويجتث جذوره، وبالتالي لم تصبح الضيعة مصدر الدخل والثروة، بل حلت محلها

(19) الهكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب طبعة الجزائر 1911 ص 87

(20) العبدري: الرحلة المغربية . طبعة الرباط 1968

(21) كتاب العمر، طبعة بيروت 1979 - ص 31 - 23

(22) عاشور:،: حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى بيروت 1976 ص 435

وتبعت هذه الخطوة أخرى تجلت في إقدام المدن على انتزاع الاعترافات بحقوقها من الاقطاعيين، الشيء الذي قمخض عنه ازدياد البراءات والعهود الاعفائية التي كانت معلما نهائيا من معالم ميلاد المدينة (24)

فاذا كانت المدينة الاوروبية - كما لاحظنا - نشأت من صلب النظام الاقطاعي، فكانت من ثم إفرازا طبيعيا لتطور تاريخي مقنن، فان تأسيس مدينة وجدة ارتبط بعوامل مغايرة يمكن تلمسها في النص التالي الوارد عند بن خلدون (25):

« واستفحل أمر زيري بالمغرب، ودفع بني يفرن عن قاس الى نواحي سلا، واختط مدينة وجدة سنة أربع وثمانين، وأنزلها عساكره وحشمه، واستعمل عليها ذويه ونقل ذخيرته، وأعدّها معتصما، وكانت ثغرا للعالمين المغرب الاقصى والاطوسط، »

من خلال هذا النص، تتجلى العوامل التي كانت وراء تأسيس مدينة وجدة، ويمكن إجمالها في عامل الدفاع والحماية وهو ما يظهر من خلال عبارة ابن خلدون بأن زيري « أنزل بها عساكره وحشمه » وفضلا عن قوله « وأعدّها معتصما، وهي عبارة كافية للدلالة على وظيفتها الدفاعية بالاساس، ثم عامل قبلي يبدو من خلال قول المؤرخ السالف الذكر بأن زيري « استعمل عليها ذويه » (26) ويقصد بها قبيلة مغراوة الزناتية التي عاشت حياة الترحال بين نهري ملوية وتافنا وتخوم الصحراء المغربية (27)، وهنا تصدق مقولة ابن خلدون (28) في أن « القبائل والعصائب إذا حصل لهم الملك اضطروا للاستيلاء على الامصار لأمرين : أحدهما ما يدعوا اليه الملك من الدعة والراحة وحط الاثقال، واستكمال ما كان ناقصا من أمور العمران في البدو، والثاني دفع ما يتوقع على الملك من أمر المنازعين والمشاغبين »

من خلال هذا التحليل يظهر إذن أن مدينة وجدة ارتبطت في نشاتها بعوامل عسكرية وقبلية غير أن ذلك لا يكفي للوقوف نهائيا على كل العوامل .

(23) نفسه ص 436 - 437

(24) نفسه ص 440

(25) العبرج 7 ص 31 - 32

(26) انظر كذلك ابن أبي زرع، الاتيس المطرب، طبعة الرباط، 1973. ص 105

(27) اسماعيلي: تاريخ وجدة وأنكاد في دوحة الامجاد طبعة البيضاء. 1985 ص 29

(28) المقدمة ص 287

فاذا جاء ميلاد المدينة الاوروبية تتويجا لمرحلة تخلخل فيها الاقطاع كمنظومة اقتصادية سياسية، فان ميلاد وجدة جاء استجابة لرغبة فردية (29) ناتجة عن الشعور بالقوة والاعجاب بالنفس وهو ما يشير اليه ابن أبي زرع (30) بقوله : " وقوي أمر زيري بن عطية بالمغرب، ولم يبق له منازع، وهابته الملوك، وبقي الامر بينه وبين المنصور فبنى مدينة وجدة ". ومن ثم يمكن القول بأن نشأة وجدة جاءت تتويجا للمهمة بطولية خاضها زيري بن عطية ضد المنصور بن أبي عامر (31) ولذلك يمكن تصنيفها في عداد " مدن الامجاد " ولا غرر فانها لم ترتبط بنشاط تجاري معين، ولا حتى بفرص البحث عن الزراعة والاستقرار.

كما يجب ألا يغرب عن الاذهان أن هذا التأسيس ارتبط كذلك بظروف الصراع الدولي آنذاك حيث كان مخططها يهدف من وراء ذلك الى تحجيم دور المنصور بن أبي عامر الذي أصبحت تدخلاته في شؤون المغرب غير ملزمة للسكوت، وكذلك الادارة والفاطميين الذين استغلوا التناحرات الطائفية ليحشروا أنوفهم في الشؤون الداخلية للمغرب (32)

ولما كان الغرض من بناء المدينة دفاعيا بالدرجة الاولى، فإن همة المؤسس اتجهت نحو تحقيق الحصانة والمنعة، وهذا ما يفسر قول ابن أبي زرع (33) بأنه « شيد سورها وقصبتها وركب أبوابها » وهو ما يعني أنه في الوقت الذي كان المد يتجه نحو الخارج في المدينة الاوروبية كان نظيره في مدينة وجدة يتخذ اتجاها عكسيا (34). وما أن القبيلة التي ينتمي اليها زيري . وهي قبيلة بني يفرن . كانت اصلا قبيلة رعوية، فمن البديهي أن تكون وجدة مدينة داخلية وليست ساحلية كما أن الطابع البدوي - وليس المدني كما هو الحال في المدينة الاوروبية - ظل الغالب على وجدة، وهو ما لاحظته ابن خلدون في معظم مدن افريقية والمغرب (35).
حصيلة القول هو أنه إذا كان ميلاد المدينة الاوروبية يعد تطورا حتميا لسيرورة تاريخية طبيعية، فإن ميلاد وجدة ارتبط بعوامل ظرفية طارئة يجعلها تدخل كذلك في عداد المدن

(29) مجموعة من الدارسين: المدينة الاسلامية طبعة المصحفة 1977 ص 95.

(30) م . س . ونفس الصفحة بتعبد الله: معلة المدن والقبائل. طبعة المصحفة فضالة 1977.. ص 372

(31) Histoire de Maroc T.I Casa 1946 p 173: TERRASSE:

(32) إسماعيلي: م . س . ص 31

(33) م . س . ص 105

(34) يربط ابن خلدون بين الاستيلاء على الامصار والترف وضرورة الدفاع والاحتواء، انظر المقدمة ص 287

(35) نفسه ص 298 - 299

"التلقائية" إذا استعرنا تعبير نيكيتا أليسييف (36).

تطور المؤسسات السياسية

عرفت المدينة الأوروبية ابتداء من القرن 11م (5 هـ) تطورا بالغ الأهمية على الصعيد السياسي ويتجلى ذلك في ظهور دساتير تسيير شؤون المدينة، تضمنت قوانين تنظم حقوق المواطن، وواجب المواطن من حيث الدفاع عن المدينة واحترام قوانينها (37).

وبموازاة ذلك ظهرت هيئة النقابات في كل المدن الأوروبية، وكان الهدف من نشوتها هو حماية التجار من عسف الأمراء ونهبهم، ورعاية مصالحهم، وتنظيم شؤون المدينة داخليا (38)، وغدت هذه النقابات تتمتع بنفوذ واسع، بل قدر لها خلخلة استيراد الاداة الحكومية بعد انتفاضات وثورات قامت بها المدن الأوروبية في القرنين 13 و 14 (39)، فكيف تطورت المؤسسات السياسية في مدينة وجدة ؟

في الوقت الذي كانت آخر ذبول النظام الإقطاعي تنحسر في المدن الأوروبية، كانت وجدة على عكس ذلك تعرف تجدد هذا النظام. ففي عصر المرينيين يذكر الناصري (40) أن السلطان المريني أبا الحسن أقطع جبايتها لابناء الأمير أبي عيد الله بن أبي بكر مقابل مبايعتهم له. كما مكن لذوي عبيد الله إقطاع جبايتها كذلك، مما جعلهم أحرارا في التصرف فيها، فأمعنوا في استغلال السكان، وفرض الضرائب عليهم، مصداق ذلك فرضهم ضريبة أطلقوا عليها ضريبة الاجازة (41).

ورغم تبدل الاسرات الحاكمة، فاننا لا نقرأ في النصوص إلا خبر فتح المدينة دون أن نسمع عن إصلاح سياسي أو مبادرة من طرف السكان لاتشاء نقابة تحاول الحد من نفوذ سلطة الدولة. بل على العكس، عاش أهل وجدة في واد، والسلطة الحاكمة في واد آخر، وفي هذا المعنى ذكر أحد المؤرخين (42) ما يلي: "فوجدوا - المرينيين - ملوك الموحدون قد تهاونوا بالامور واعتكفوا في قصورهم على اللهو وركنوا الى الغيد في القصور".

(36) مجموعة من العارفين : م . س . ص 96.

(37) عاشور: م . س . ص 441 - 444

(38) نفسه ص 448 .

(39) نفسه ص 451 - 452

(40) الاستقصاء ج 3 طبعة البيضاء 1954 ص 155

(41) أبو ضيف : أثر التباثل العربية على الحياة المغربية في عصري الموحدين وبنو مرين . البيضاء 1982 ص 158

(42) ابن أبي زرع: الدخيرة السنية . طبعة الرباط 1973 ص 26

ويخيل إلينا أنه ما كان بإمكان سكان وجدة وما ضمته من قبائل القيام بمثل هذه المبادرة في ظل حكومات تميزت بلغة الاستبداد ، واعتماد خطاب القوة وقانون الغاب. ونسوق في هذا الصدد مثالا ولو أنه ذو طابع عام يهم كل المدن المغربية.

فعندما يتحدث ابن أبي زرع (43) عن البدايات الاولى للمرينيين يقول عنهم «وشنوا الغارات على قراه ومدنه - (يقصد الغرب) وضيقوا على قبائله، فكان أحدهم لا يقدر أن يخرج من مكنه إلا أن كل من أذعن لهم بالطاعة سالموه، ومن ناهضهم قاتلوه وقصموه، ففر الناس أمامهم يمينا وشمالا، ولجأوا الى الجبال المنيعه لتكون لهم حصنا ومآلا، وخلت المجاشر، وقلت العمارات، ووقع الخوف في البلاد والطرقات، وغلت الاسعار في جميع الامصار» وهذا النص بالغ الدلالة عن العسف الذي تعرض له سكان المغرب بما فيهم أهالي وجدة خاصة إذا استحضرن أن هؤلاء تعرضوا علاوة على ضغط المرينيين الى ضغط بني عبد الواد حيث احتل أبو حمو الثاني سهل أنكاد ليعيش على حساب السكان بالنهب والسلب والتشريد (44)، مما جعلهم « بين خشبتين يعانون من ضغط مشترك»، الشيء الذي لم يسمح بتطوير المؤسسات السياسية في اتجاه إيجابي.

يضاف الى ذلك عامل آخر ساهم في عدم استقرار الحياة السياسية في وجدة، ألا وهو التركيب الاجتماعي القبلي وتواصل العادات القبلية فمن المعارف عليه أن الانتماء الى القبيلة لا يتوافق مع حياة الاستقرار (45) وهذا ما يفسر بقاها بعيدة عن الاهتمامات السياسية التي دشتتها المدن الأوروبية.

والجدير بالذكر أن هذه الاخيرة كانت تشكل وحدة سياسية مستقلة، ولا غرو فقد أصبحت مدن العصبة الهانزية تنازل الملوك، وتحفظ بأسطول ضخم لمقاومة القرصنة في بحر الشمال، بل إن البندقية أصبحت في أواخر العصور الوسطى قوة بحرية يحسب لها الحساب، وغدت تملك مستعمرات (47)، هذا في الوقت الذي ظلت وجدة تابعة إما للسلطة المركزية المغربية أو للحكم العبد الوادي خلال الفترة المرينية.

(43) نفسه ص 27

(44) إسماعيلي: م . س . ص 59 وينقل عن بغية الرواد ج 2 ص 75 - 77

(45) الورطاسي: م . س . ص 35

(46) أبو العياش: أزمة المدينة العربية. طبعة الكويت 1980. ص 57 - 58

(47) عاشور: م . س . ص 444

تطور المؤسسات الاقتصادية

أظهرت الدراسات الخاصة بالمدن الأوروبية أن نشأة هذه الأخيرة سارت بكيفية موازية مع تطور السوق أهم مؤسسة اقتصادية مدنية - فبعد أن تميز القرنان التاسع والعاشر بظهور أسواق محلية يتم التبادل فيها على نطاق ضيق، وعلى مستوى الاستهلاك المحلي، عرفت أوروبا في القرن 11 مع بداية نشأة وازدياد النشاط التجاري نشوء أسواق كبرى Fairs لا تهدف الى سد حاجيات المدينة فحسب، بل تسعى الى إبرام اتفاقيات واسعة، وتوسيع مجال التبادل التجاري. وكان القانون ينظم هذه الاسواق، ويسهر على حمايتها. وحسبنا أن الارض التي كان يقام عليها السوق كانت تحظى بنوع من الضمان والسلام بحيث يتعرض كل من حدثته نفسه بتعكير مناخ السلم والاستقرار لأشد أنواع العقوبات (48)

والبحث عن مؤسسة الاسواق في مدينة وجدة وتطورها يكتنفه كثير من الغموض إذ أن النصوص شحيحة ومبهمة. فالبكري (49) الذي عاش في القرن الخامس الهجري يتحدث عن القسم المحدث من وجدة وهو الذي أسسه يعلى بن بلجين الورتغيني فيذكر تواجد التجار فيه ويؤكد على القيام أسواق به، في حين يكتفي الحسن الوزان (50) بالإشارة الى أن الدكاكين تميزت بالبناء المتقن دون توضيح نشاط هذه الدكاكين. والراجع أن سوق وجدة ظلت سوقا استهلاكية موجهة لسد الحاجيات اليومية المحلية. ويبدو من أول وهلة أنها لم تعرف نفس التطور الذي عرفته أسواق المدن الأوروبية ذلك أن النمط الغالب كان هو الرعي والانتجاع حتى أن جغرافيا وصف أراضيها بأنها « أنجع المراعي » (51)، ووجدت القبائل العربية الضاربة ما يناسب نمط عيشها فأقبلت على الانتجاع في أراضيها (52)، وهذا ما يفسر اشتهاار المدينة بتربية المواشي (53).

(48) نفسه ص 458 - 460

(49) المغرب: ص 87

(50) وصف إفريقيا ج 1 ص 13

(51) الحميري: الروض المعطار. طبعة بيروت 1984 ص 607 - البكري: م. ص ص 87 - 88

(52) إسماعيلي: م. ص ص 69.

(53) الوزان: م. ص. ص 14 ويذكر أنها كانت تنتج الحمير الجميلة.

أما ما ذكره صاحب الاستبصار وغيره (54) من اشتهاها بصناعة أكسية العبيدي فان هذه الصناعة كانت موجهة للاستهلاك المحلي، فضلا عن أنه قول ينهض دليلا على ارتباط الصناعة بالزراعة، ويقائنها ملتصقة بها، وهي إحدى المميزات الدالة على عدم بداية التحول نحو مرحلة أرقى.

كما أننا نستنتج من خلال نصوص الرحالة والجغرافيين أن مدينة وجدة ظلت تعتمد على الزراعة كقوة إنتاج رئيسية (55)، مما يدل على أن نشاط السوق ارتبط بهذين العنصرين : الزراعة والرعي، ومن ثم كان سوقا استهلاكيا غير معد للتبادل، الشيء الذي جعل مدينة وجدة « حاضرة فلاحين ورعاة » أكثر منها مدينة متحضرة، ولا غرو فان حاجيات سكانها ظلت بسيطة مرتبطة بقانون البقاء دون أن تستطيع توفير فائض الانتاج، وهو الفائض الذي يؤدي عادة الى تزايد حركة المبادلات التجارية، وظهور التجارة المتخصصة.

ولم تكن علاقة مدينة وجدة بأريافها واضحة، وليس ثمة ما يدل على أنها لعبت كما هو الحال في المدينة الاوروبية دور الوسيط الذي ينظم الخدمات بينها وبين بواديها، وهذا راجع الى عوامل سياسية سنفصلها فيما بعد، كما أن خراب البوادي ذاتها ساهم في هذا الانقسام بين حاضرة وجدة وأريافها.

وقد سبق الحديث عن الدور السياسي للنقابات في مدن أوروبا العصور الوسطى ولا سبيل الى الشك في أنها لعبت دورا إيجابيا على الصعيد الاقتصادي كذلك، إذ سعى التجار من خلالها الى تنظيم شؤون التجارة داخل المدينة وحماية مستوى الانتاج والبضائع، ومنع استيراد السلع التي تضر الانتاج المحلي للمدينة (56)

ولم تلبث النقابات أن تعددت في كل مدينة، وشملت جل الصناعات الحرفية، فوجدت نقابات لكل أنواع الحرف. وحرصت على أن يراعي المنخرطون فيها حقوق بعضهم بعضا فمنعت الاسطوات من ممارسة عملية الطرد على عمالهم دون سبب معقول. وفي الوقت ذاته، فرضت من خلال عقود والتزامات على العمال الاستمرار في عملهم لفترة معينة يتم الاتفاق عليها. كما قدمت النقابات خدمات اجتماعية شتى لاعضاءها بتحقيق التضامن الاجتماعي وإغاثة من

(54) مجهول: كتاب الاستبصار ص 177 - المحمري: م . ص ص 607 - 608

(55) انظر الهكري : م . ص ص 87 - الوزان: م . ص . ص 14 ومارمول نقلا عن Voinot في كتابه Oujda et l'Amalat, p115

(56) عاشور: م . ص ص 448.

يصاب بمرض أو عجز يمنعه من العمل (57)

انطلاقاً من ذلك يمكن الجزم بأن النقابة لعبت دوراً رائداً في تطوير المدينة الأوروبية اقتصادياً فهل وجد مثل هذه المؤسسة في مدينة وجدة ؟

من الأكيد أنها لم تعرف مثل هذا التنظيم وإن كان يبدو نوع من الشبه بينه وبين نظام الحسبة الذي كان يضبط الأسواق ويراقبها مراقبة صارمة من طرف مختص أطلق عليه اسم المحتسب. والنصوص لا تسعنا في معرفة ما إذا كانت وجدة قد عرفت نظام الحسبة وإن كان كتاب الحسبة الذي كتبه أبو العباس الكرسيفي (58) يوحي بأن محتسباً من المغرب الشرقي وجد في إحدى الفترات التاريخية. غير أنه يجب ألا يغرب عن الأذهان أن نظام الحسبة يقوم على ضبط أسعار السوق، وتنظيمها لفائدة المستهلك أكثر مما يهدف إلى الدفاع عن مصلحة البائع والحرفي والصانع (59). ومن هنا تتجلى المفارقة في أن الأول ذو طابع أخلاقي "ردعي"، بينما الثاني دفاعي، حمائي لصالح المنتج .

وإذا كانت بعض المدن المغربية عموماً قد عرفت بعض التنظيمات الشبيهة بالنقابة (الرئيس - العريف - المعلم - المتعلم - الأمين ...)، فإن ذلك لم يكن قائماً على تكثّل مطلبية، وإنما كان ذلك في العمق مؤسسة تخدم الدولة في تسيير الأمور (60).

وإذا بحثنا في علاقة التجار مع الدولة في المدينة الأوروبية وقارناه بمدينة وجدة، تتضح مفارقة أخرى. ففي الوقت الذي بلغ تجار المدن الأوروبية ثروة هائلة مكنتهم من إقراضها للملك أوروبا بفوائد، وهو ما شجع مبدأ القروض وعمليات السلف، نستشف من خلال النصوص أن هذا التطور لم يحصل في المدينة موضوع الدراسة رغم أن الحسن الوزان تحدث عن سكانها فوصفهم بأنهم « أثرياء متحضرين » (61) لكنه لم يوضح المقصود من هؤلاء الأثرياء، هل هم التجار؟ أم قطاعات أخرى من شرائح السكان ؟ الراجع أنه يقصد بهم رؤساء القبائل ممن كانوا يغتنون بجباية أراضي المزارعين كذوي عبيد الله وغيرهم.

(57) عاشور: م . س ص 451

(58) هو مؤلف إحدى رسائل الحسبة التي نشرها ل . بروفنسال ضمن كتاب : ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب مطبعة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة 1955

(59) مجموعة من الدارسين م . س . ص 48 ، 60

(60) عز الدين موسى: النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري. بيروت 1983 ص 217

(61) وصف إفريقيا ص :

وحتى لو افترضنا جدلا أن المقصود بهؤلاء الاثرياء هم التجار، فالواضح أنهم كانوا من ممثلي الفئة الحاكمة نفسها، لان العادة جرت أن يتعرض التجار غير المرتبطين بالجهاز الحاكم الى المصادرة كما أشار الى ذلك ابن خلدون في مقدمته (62) كما أن الحكومات المتعاقبة لم تكن في حاجة الى الاقتراض من التجار مادامت تمتلك فرصة جباية الضرائب منهم.

وثمة ما يعكس كذلك مثل هذه المفارقات. فالمدينة الأوروبية عرفت مناخا من الامن والسلم وهو شرط ضروري للتجار للقيام بمشاريعهم الطموحة، في حين ظلت وجدة دائما معرضة للتهديد والخراب كما سنوضح فيما بعد.

ولا يعزب عن الذهن أن المدينة الأوروبية شكلت كذلك وحدة اقتصادية مستقلة حتى أن البندقية مثلا أصبحت أعظم قوة تجارية بحرية في العصر الوسيط، وصار لها مراكز وأحياء تجارية على البحر الادرياتي، وفي بلاد الشرق الأدنى (63) في حين ظلت مدينة وجدة مرتبطة بهيمنة الحكم المركزي الذي كان يستنزفها بواسطة الضرائب، خاصة في أواخر عهد الدول والاسرات الحاكمة، وهو ما لاحظته ابن خلدون حين ذكر بأنه « ربما يزيد ذلك في أواخر الدولة زيادة بالغة فتكسد الاسواق لفساد الامال »

والحاصل أنه على الصعيد الاقتصادي كانت مدينة وجدة تفتقر الى « شروط » تطوير مؤسساتها على غرار ما شهدته المدينة الأوروبية.

رابعا: على مستوى التطور العمراني :

إذا ما حاولنا مقارنة مدينة وجدة بالمدينة الأوروبية عماريا فاننا لا نعثر للاسف إلا على نصوص ضئيلة تعد على رؤوس الاصابع. ففي طور التأسيس يشير أحد المؤرخين (65) الى أن زيري بن عطية « شيد سورها وقصبتها وركب أبوابها » وفي العصر الموحي ثمة إشارة الى تجديد بناء سورها (66). أما في العصر المريني فاننا نجد نصا يتعلق بالسلطان المريني يوسف بن يعقوب الذي « شيد بها قصبة ودارا ومسجدا وحماما » (67).

(62) المقدمة ص 308

(63) عاشور: م. ص ص 444

(65) ابن أبي زرع: الانيس المطرب ص 105

(66) نفسه ، ص 272

(67) نفسه ص 385 - ابن خلدون م . ص ج 7 ص 220. الناصري: م. ص ج 3 ص 76

وتكشف كل هذه النصوص عن تأثير العاملين العسكري والديني في عمران المدينة ولا غرو فان بنائها يرتبط بالمسجد كنواة أولى، ثم الحمام الذي يرتبط ارتباطا وثيقا بالطهارة وإقامة الشعائر الدينية. أما القصبة والسور فقد اعتبرا - دوما - مسألة ضرورية للدفاع والحماية. ولا شك أن السوق المركزي وجد الى جوار هذه المرافق، غير أننا لا نعرف ما إذا كان سوقا يوميا أو أسبوعيا أو موسميا، وإن كانت إشارة الوزن (68) حول وجود دكاكين منظمة تجعلنا نفترض وجود سوق مركزي دائم للمدينة كان يتم فيه البيع والشراء يوميا.

ولعل الطابع الاسلامي الاصيل لمدينة وجدة هو ما ميزها عن نظيرتها الاوروبية وأن كان "ماكس فيبر" في مقارنة عامة بين المدينتين الاوروبية والاسلامية أشار الى اشتراكها في خاصيتين عمرانيتين : القلعة والسوق (69)، إلا أن الاختلاف يظهر في كون ضواحي المدينة الاوروبية كانت تنمو باستمرار نتيجة هجرة الاقنان اليها هربا من سطوة الاقطاعيين، بينما كانت قبائل مدينة وجدة لاتعرف استقرارا ثابتا بفعل التنقلات والترحال. كما أن مباني المدينة الاوروبية تميزت بالارتفاع نتيجة ضيق المدينة وارتفاع تكاليف شراء الاراضي المعدة لبناء المنازل مما جعلها تتسم باكتظاظ السكان (70)، في حين ليس ثمة دليل واضح حول ارتفاع مباني مدينة وجدة. بل إن هدمها بسرعة من طرف الجيوش المغيرة يدل على أن مبانيها كانت قليلة، الشيء الذي يجعلنا نفترض بأن المدينة تميزت من الناحية العمرانية بالطابع البدوي.

حصيلة القول هو أن المقارنات الآتفة الذكر، مكنت من الوقوف على العوامل التي جعلت مدينة وجدة تعرف تطورا مغايرا لما عرفته المدينة الاوروبية، ومن ثم يمكن استخراج العناصر التي تفسر لنا لماذا ظل تاريخ المدينة يتسم بالبطء والركود، من خلال تسجيل الملاحظات التالية :

1) ظلت وجدة مركزا للصراع السياسي وغازات القبائل البدوية:

تبرز أهمية المدينة كموقع لصراع وتنافس القوى المختلفة بما تكتسبه من بعد استراتيجي فهي «طريق المار والصادر من بلاد المشرق الى بلاد المغرب وسجلماسة وغيرها» (71) وتعد

(68) وصف افريقيا ج 1 ص 14

(69) المدينة، معناها .. ص 18

(70) عاشور: م . ص ص 442 - 443

(71) الاستبصار . ص 177 - الحميري : م . ص ص 608

معقلا هاما يمكن القوى التي احتلته من الاستيلاء بسرعة على تلمسان، وهو ما حدث في عصر المرابطين (72) ثم الموحيدين (73).

وإذا كان البعد الاستراتيجي في جعل المدينة مركز صراع القوى مسألة لا يرقى اليه الشك، فهل يمكن أن تعكس تسمية "وجدة" أو "وجدات" كما ينعتها البيدق هذه الحقيقة وتزكيتها؟ يشير أحد الباحثين (74) الى أن مدلول وجدات، يعني الموقع الذي تأخذ فيه القبائل العربية حيظتها وتنصب فيها الكمائن (الوجدات) للاعداء الذين يتربصون بها الدوائر ويطمعون في الخيرات الطبيعية. مما يعكس حقا دورها كمركز صراع بين مختلف القوى السياسية.

ونضيف الى هذا التفسير آخر، فمصطلح "وجدة" اسم اطلق على أحد الحصون الموجودة في خيبر (75)، ومن طبيعة الحصون أن تكون دائما معدة للغارات وتوقي الضربات مما يؤكد طبيعة المدينة كمركز للصراع.

وعلى أية حال، يمكن اعتبار العصر المريني عصر "محنة المدينة" وحسبنا أن ضراوة الصراع اشتدت، واستعرت حروب طاحنة بين بني عبد الواد والقوى المرينية.

وتفيض المصادر بذكر هذه المعارك التي غالبا ما انتهت لصالح بني مرين (76). ولم تكن الهزائم تثني عزيمة بني عبد الواد عن إعادة الكرة (77). بل لاتعدم من النصوص ما يشير الى أن وجدة اتخذت قاعدة لأعمال الشغب. وفي هذا الصدد يذكر الناصري (78) عن السلطان يوسف المريني أنه «مر في عوده الى المغرب بوجدة، فأنزل بها الحامية من بني عسكر بن محمد لنظر أخيه أبي بكر بن يعقوب كما كانوا بتاوريرت، وأمرهم بشن الغارات على أعمال تلمسان مع الساعات والاحيان».

Loc.op.cit p 226: TERRASSE(72)

I bid p 289 (73)

(74) اسماعيلي: م . س ص 11

(75) الحميري: م . س ص 607

(76) يذكر ابن أبي زرع معركة جرت سنة 649 وأخرى سنة 670، بالاضافة الى حروب مدمرة جرت بأحواز وجدة

(77) الناصري: م . س ج 4 ص 6,5

(78) نفسه: ج 3 ق 1 ص 77

ونجم عن هذا الصراع نتائج سلبية لخصها أحد الباحثين (79) في أن وجدة «أصبحت كأنها بين فكي الكماشة، مما جر عليها أوخم العواقب، وأدت ثمننا باهضا طيلة ما يناهز نصف قرن من الزمن».

ومما زاد في سوء حظها أن غزوات الجيوش المرينية كانت تقع تقريبا كل سنة (80). ولعل عدم تمتعها بالاستقرار السياسي واعتبارها كبش الفداء في هذا الصراع هو ما جعلها لا تعرف تطورا ايجابيا.

2) دمار مدينة وجدة

من سوء حظ المدينة أنها أصبحت عرضة للدمار والخراب من طرف القوى المتصارعة. مصداق ذلك ما تزخر به المصادر من أخبار حول ضروب الحصار والطمس الذي تعرضت له فالسلطان المريني يعقوب بن عبد الحق لم يتورع عن هزم المدينة وتركها قاعا صفصفا (81)، كما أن أبا يوسف لم يغادرها في إحدى هجماته على تلمسان حتى «خربها وأضرع بالتراب أسوارها وألصق بالرغام جدرانها» (82).

وقد حاول أحد الدارسين (83) تفسير سرعة الخراب الذي لحق بوجدة، فافترض افتراضين: اما أن المدينة لم تتجاوز مستوى قصبة صغيرة، أو أن عدد الجيوش كان من العدد ما مكنه من دكها وتدميرها. لكن فاتته أن ابن خلدون فطن الى سرعة خراب المدن المغربية فأرجعها الى عدم حسن الاختيار في اختطاط المدن وطيب الهواء والمياه، فالقبائل المؤسسة للمدن حسب وجهة النظر الخلدونية لم تكن على دراية بهذه الشروط مادامت تعتمد على التنقل والرعي (84)، ومن هنا يمكن تفسير الدمار الذي لحق بوجدة.

ويذهب نفس الباحث الى ذكر نتائج ضروب الحصار والخراب المفروض على المدينة، فيستخلص أن قبائل شرق المغرب كانت تؤذي الثمن من مالها وأرضها وأنعامها (85).

(79) اسماعيل : م . ص 56

(80) نفسه ص 54

KHANBOUBI: Les premiers Sultans Merinides p 310

(81) ابن خلدون : م . ص ج 7 ص 86

(82) نفسه ص 185

(83) الورطاسي: معالم من تاريخ وجدة ص 30

(84) ابن خلدون ، المقدمة ، ص

(85) الورطاسي ، معالم .. ص 31

وتقوم النصوص التاريخية حول إعادة بناء المدينة أو تجديد أسوارها دليلا على الخراب المستمر الذي تعرضت له. وفي هذا المعنى يذكر أحد المؤرخين (86) أنه في سنة 602 هـ أمر الخليفة الموحي الناصر ببناء المدينة، وهو ما يعني أنها تعرضت للدمار إبان الفتح الموحي. وبعد سنتين جدد سور المدينة، مما يزكي شرعية الافتراض السابق.

وفي سنة 696 هـ أعيد بناء المدينة من جديد بأمر من السلطان المريني يوسف ابن يعقوب الذي بنى بها قصبة ودارا ومسجدا وحماما (87) وهو أمر ذو مغزى إذ يعطي البرهان على أن المدينة تعرضت لخراب شامل إذ من عادة مؤسسي المدن أن تكون انطلاقة تأسيسهم للمدن القصبة ودار الامارة والمسجد والحمام.

وانطلاقا من هذا النصوص، لا يخامرنا شك في أن عمليات الدمار التي تعرضت لها وجدة شكل عقبة كأداء في سبيل تقدمها.

3) بقاء الفلاحة والرعي قوة الانتاج الرئيسية

يتضح من خلال نصوص الرحالة والجغرافيين (88) أن قوة الانتاج الاساسية في مدينة وجدة تمثلت في الفلاحة والرعي. ولم يكن بمقدور هذا النشاط أن يدفع بعجلة المدينة نحو التطور. ولا غرو فان عالم الاجتماع في العصور الوسطى - ابن خلدون - فطن الى ذلك حين اعتبر الفلاحة « من معاش المستضعفين وأهل العافية من البدو » (89) كما عدها مرحلة سابقة عن الحضارة (90).

وإذا كنا نجد ذكرا لبعض الصناعات كجزء من النشاط الاقتصادي للمدينة، فانها لم تكن سوى صناعات استهلاكية تفي بحاجيات السكان فحسب. وخلال المراحل التي تعرضت فيها المدينة للخراب، اندثرت وألحق بها أبلغ الضرر، وهنا تصدق مقولة ابن خلدون في أن خراب المدن يؤدي الى انتفاص الصنائع (91).

(86) ابن أبي زرع : الاتيس المطرب ص 233

(87) نفسه ص 385 - ابن خلدون : م . س ج 7 ص 220

(88) فضلا عن النصوص التي أوردناها سلفا. انظر كذلك الحميري : م . س ص 607 حين يصف وجدة بأنها « كثيرة البساتين والجنات والمزروعات والمياه والعبرن ».

(89) المقدمة ص 329 والمزروعات

(90) نفسه ص 339

(91) نفسه ص 337

ولعل بقاء الفلاحة كقوة إنتاج رئيسية في الوقت الذي كانت المدن الأوروبية تعرف صحوة تجارية وتفتتح على آفاق العالم هو ما يفسر لنا انغلاق المدينة ومن ثم بطء تطورها. وما زاد في تجدد هذا الركود هو خراب البوادي التي تعتمد عليها.

4 خراب بوادي وجدة

تعد البوادي ممونا أساسيا للمدن. لكن يلاحظ بالنسبة لمدينة وجدة أن بواديها لم تكن تف بالانتاج المطلوب فقيرة أكرسيف على سبيل المثال لا يوجد فيها « سوى القليل من الاراضي الزراعية » (92). والشيء نفسه يقال عن دبدو التي لم تكن تسد حتى « نصف حاجات سكان المدينة » (93).

أما القرى المعروفة بخصوبة أراضيها وإنتاجها الغزير كتلك الواقعة على نهر ملوية (94) فإنها تعرضت للتدمير والخراب. مصداق ذلك ما ذكره أحد المؤرخين (95) حينما أورد خبر دخول السلطان المريني أبا سالم الى تلمسان ومحالفة أبي حمو مع جيوشه للمغرب : "قنزلوا أكرسيف، ووطاط، وبلاد ملوية وحطموا زروعها وانتسفوا بركتها وخربوا عمرانها"

كما تعرضت قرية تاوريرت بدورها لخراب بني عبد الواد الى أن « دمرت وهجرت » (96) ولم تكن حالة هذه البوادي سوى انعكاس لحالة بوادي وقرى المغرب بصفة عامة، خاصة إذا اقترنت بفترات انحطاط الدول. ولعل النص التالي الذي يشير الى أحد الامراء المرينيين خير دليل على ذلك : « فطاع له جميع قبائله، وملك بواديه من ملوية الى رباط الفتح، وفي أيامه كانت المجاعة والوباء الشديد والخوف والفتن، فخلا أكثر بلاد المغرب » (97).

والجدير بالذكر أن المغرب عرف عدة مجاعات نتيجة الجفاف والقحط، ولم تكن وجدة وبواديها بمعزل عن غضب الطبيعة هذا، فقد ظلت سنة 444 هـ المعروفة تاريخيا بسنة « اوقية

(92) الوزان: م . س ج 1 ص 275

(93) نفسه ص 273

(94) يصف صاحب الكتاب الاستبصار نهر ملوية بأن عليه « نظر واسع ، وفيه قرى كثيرة وعماثر متصلة تسقى كلها من نهر ملوية »

(95) الناصري: الاستقصاء ج 4، قسم 2، ص 33 - ابن عشاري: البيان المغرب القسم الخاص بالموحدين البيضاء 1985

(96) الوزان: م . س ج 1 ص 68

(97) ابن أبي زرع : الذخيرة ص 37 - ابن عشاري: م . س ص 351

بدرهم» (98) معلمة بارزة في سيرورة تاريخ المجاعات. وتميزت مجاعة سنة 617 هـ باقترانها بالجراد الكثيف الذي عم المغرب (99). كما عصفت مجاعات أخرى بالبوادي المغربية سنة 610 هـ 617 هـ 624. أما سنة 630 ففيها « خلت بلاد المغرب وكثر الجوع والوباء » (100). وبلغت آفة الجراد ذروتها سنة 679 هـ حيث أتى على الانتاج الزراعي « فلم يترك بها مخضرا » (101).

ومثل هذه الظواهر الطبيعية تؤثر سلبا على اقتصاد وجدة وبالتالي تشكل إحدى مشكلات تطورها.

5) عدم تثبت دعائم الامن واغتصاب الاراضي.

إذا كان الامن يعد شرطا ضروريا لكل حركة نهضوية، وإطارا مرجعيا لتطور المدن، فإن وجدة في العصر الوسيط لم تنعم بفترات تذكر من السلم والامن، بل كانت هذه الحالة تنعدم بالمرة في المراحل الانتقالية بين الدول وكذا معظم العصر المريني. ونورد في هذا الصدد ما ذكره أحد المؤرخين (102) متحدثا عن أواخر عصر المرابطين: « وغلّت الاسعار، وعم الجور، وكثرت المحن بالعدوتين، وانقطع السفر والاسباب وكثر النهب وانقطعت الطرق » ويقدر ما ينطبق هذا النص على المدن المغربية، فانه ينطبق كذلك على مدينة وجدة.

أما اغتصاب الاراضي فقد وردت هذه الظاهرة بكثرة في كتب النوازل (103)، وأن لم تكن نوازل سكان المدينة ضمنها فان ذلك لا يعفيها من خضوعها لنفس الظروف التي عرفها المغرب عامة وكل هذه الدلائل تشير الى معوقات تطورها.

6) عدم مساهمة الدول المتعاقبة في تطوير وجدة.

إذا كانت أخبار الخراب والدمار تتردد بكثرة في المصادر، فاننا للأسف لا نجد سوى أخبار شاحبة حول مساهمة الدول التي تعاقبت على حكم المغرب خلال العصر الوسيط في تطوير

(98) ابن عذاري : البيان ج 1 ص 255

(99) ابن أبي زرع : م . ص 54

(100) ابن أبي زرع : الاتيس المطرب ص 272، 273، 274، 276

(101) نفسه ص 413

(102) ابن الاحمر: يهوات فاس الكبرى. طبعة الرباط 1972 ص 156

(103) عز الدين موسى : م . ص 149

مدينة وجدة، وتأسيس المرافق الاجتماعية والعلمية بها. فباستثناء ما اتفق عليه المؤرخون حول بناء السلطان المريني يوسف بن يعقوب لحمام ودار وأمانة ومسجد وقصبة (104)، لا نجد نصوصاً أخرى توحي بعكس هذا التخرّيج.

وعلى الرغم من أن بعض الحكومات نهجت سياسة الإصلاح كما يتجلى ذلك فيما قام به يوسف بن تاشفين في بداية حكمه، وكذلك عبد المومن بن علي الذي تشير المصادر إلى أنه نهج سياسة اقتصادية حكيمة حيث أسقط الضرائب وشجع الصناعة (105)، وأكمل ما بدأه المرابطون من جلب الخبرات الاندلسية وتطوير أساليب الري (106). ورغم ما شهده العصر المريني من إصلاحات على الصعيد الفلاحي خاصة في عهد أبي الحسن الذي أنصف طبقات الفلاحين والزراع ووزع قطعاً أرضية على سائر القبائل (107)، وقام بإصلاح جباية (108). رغم كل ذلك فإن المصادر لا تشير إلى إصلاحات طبقت في وجدة مع أنها أشارت إلى مدن أخرى كمراكش ومكناسة وفاس (109). وقد علق على ذلك أحد الدارسين (110) بقوله: « وباستثناء إعادة بناء وجدة وإنشاء القصبة مع مرافقها المذكورة، لا تشعر بأي مرفق عام لفائدة هذا الثغر، لا مدرسة ولا مسجد ولا مركزاً خيرياً ولا بناء طريق ولا إقامة سد للسقي، لا شيء من ذلك أو ما يشبه ذلك ». وبالفعل فإنه يصعب العثور على نص يتحدث عن إنشاء مدارس في وجدة، رغم أن بعض المدن المغربية والإسلامية شهدت في ذات الفترة تأسيس عدة مدارس (111).

ومع أن وجدة اعتبرت عاصمة للدولة الزيرية، فإنها لم تكن في الواقع أكثر من قاعدة خلفية أسسها زيري لغرض الالتجاء إليها إذا اضطره الحال لترك العاصمة فاس (112). بل

(104) يفترض الورطاسي أن المسجد المقصود هو المسجد الأعظم القائم الآن بوجدة، وحمام المجردة هو الحمام المشار إليه في

النص وأن دار البشوية الحالية هي القصبة. انظر كتابه معالم من تاريخ وجدة ص 35

(105) عز الدين موسى : م . س ص 210

(106) نفسه ص 181 - 182

(107) المتوني : وروقات عن الحضارة المرينية طبعة الرباط بدون تاريخ ص 111

(108) نفسه ص 90

(109) صبح الاعشى ج 5 ص 157 نقلاً عن عز الدين موسى : م . س ص 181 - 182

(110) الورطاسي : م . س ص 35

(111) مجموعة من الدارسين : المدينة الإسلامية ص 66

(112) إسماعيلي : م . س ص 35.

إنها أصبحت بالفعل ملجأ لمن خانتهم ظروف الحرب. فعندما انهزم حمامة بن المعز أمام تميم البفرني. فر الى مدينة وجدة (113). وكان زيري بن عطية أحد اللاجئين الى المدينة لاستنفار القبائل الشرقية لاعادة ملكه (114). ولم تلعب وجدة دور العاصمة السياسية خلال مدة قصيرة إذ سرعان ما اندثرت بانتهاء دور مؤسسها وهنا تصدق مقولة الارتباط بين انهيار دور المدينة وذهاب الدولة التي أسستها.

(7) إقبال سكان وجدة بالضرائب .

لا ترد بهذا الخصوص إشارات واضحة الى أهالي وجدة، إنما جاءت النصوص في إطار معمم على جميع مدن المغرب وقراه. ومن الاكيد أن الضرائب أثقلت كاهل السكان والقبائل في أواخر حياة الدول المتعاقبة. ففي الفترة الانتقالية بين المرابطين والموحدين، تتعدد الاشارات في كتب النوازل الى هذه الظاهرة (115).

ورغم أن الثورة الموحدية جاءت كرد فعل ضد سياسة المرابطين الجبائية، فألغت الضرائب اللاشريعية، وقام عبد المومن بتكسير أراضي المغرب « من برقة في جهة الشرق الى بلاد نول من السوس الاقصى » (116)، فان أواخر عصر الموحدين عرف ظهور ضرائب جديدة خاصة بعد وقعة العقاب (117).

والحكم نفسه ينطبق على أواخر العصر المريني حيث قام أبو معرف محمد بن عبد الحق بتدوين بلاد المغرب « وأخذ الضريبة من أمصاره وجباية المغارم من باديته » (118). ونقل الاستاذ المنوني عن ابن الخطيب (119) قوله عن عهد السلطان المريني أبي سالم أن « الرعايا استولت عليها المغارم، ونزفها الحلب »

ولا مراء في أن استنزاف الضرائب من السكان قهرا يؤدي حسب فلسفة ابن خلدون

(113) ابن أبي زرع : الانيس المطرب ص 109

(114) إسماعيلي : م . ص ص 38 ، 41

(115) عز الدين موسى : م . ص ص 167

(116) الناصري : م . ص ج 2 ص 139

(117) نفسه ص 173

(118) نفسه ج 3 ص 10

(119) نفاضة الجراب نقلا عن وركات ص 92 .

الاجتماعية (120) الى قلة الانتاج، وهو ما يفسر التطور السلبي الذي عرفته مدينة وجدة وغيرها من المدن المغربية.

8) بقاء وجدة وفيه لتراثها البدوي، وعدم إنجازها « ثورة حضرية » نجد بصدد هذه المسألة مقولات خلدونية كأداة صالحة للتفسير. ففي حديثه عن الامصار الاسلامية، يذكر ابن خلدون أن مدن المغرب تتميز بقلّة عمرانها وطابعها البدوي، ويعلل ذلك كونها ظلت على هذه الحالة منذ أن ملكها البربر، ولم يجر تدينها من طرف القوى الاجنبية (الافرنجية حسب التعبير الخلدوني) التي حكمتها، كما أن العرب لم يقوموا بعمل يذكر في هذا المضمار، ولذلك تجددت فيها البداوة (121).

ويذكر في موضع آخر أن الامصار التي في القاصية (الهامشية) ولو كانت موفورة العمران، فإن أحوال البداوة تغلب عليها، بخلاف المدن المتوسطة التي هي مركز الدولة، (122) فاذا أضفنا الى أحكام ابن خلدون ما تميزت به وجدة من طابع زراعي رعوي، وتركيبية اجتماعية قبلية أمكن القول أنها ظلت وفيه للتراث البدوي.

ومن المؤكد أن محاولات « النمو الحضري » اعترتها تعثرات وفترات كبيرة من التوقف والتراجع والنكوص بسبب الازمات الاقتصادية والسياسية. ولو كانت لدينا إحصاءات كافية لأمكن رسم خط بياني يوضح هذا التعثر. ولعل هذا ما يجعلنا نحزم بأن وجدة لم تصل الى ما أطلق عليه عالم الاجناس جوردن شايلد « الثورة الحضرية » (123).

خلاصة القول أن دراسة مقارنة بين وجدة والمدينة الاوروبية إبان العصر الوسيط تعتورها كثير من الصعوبات التي أبان عنها البحث. وقد أظهرت هذه المقارنة سلبيات التطور الذي عرفته المدينة في ذات الحقبة، مما مكن من تعقب العوامل التي كانت وراء عدمية هذا التطور، وهي عوامل يجب استحضارها في كل عملية تنموية في الفترة المعاصرة لإعطاء دينامية جديدة لمستقبل حاضرة المغرب الشرقي .

(120) المقدمة ص 239 ويقول فيها : « اعلم أن العدوان علي الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لما يرونه حيثنظ من أن غايتها ومصيرها انتهاءها من أيديهم. وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك وعلى قدر الاعتناء ونسبته يكون انتفاض الرعايا عن السعي في الاكتساب ».

(121) المقدمة ص 298 - 299

(122) نفسه ص 308

(123) أبو عياش : م . ص ص 92.

ثبت المصادر والمراجع المستعملة

أولا : المصادر العربية :

- 1 - ابن أبي زرع : أبو الحسن علي بن عبد الله الفاسي (ت + 741)
الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس
طبعة الرباط 1973. دار المنصور.
- 2 - ابن أبي زرع : الذخيرة السنية في أخبار الدولة المرينية.
طبعة الرباط 1972. دار المنصور.
- 3 - ابن الأحمر: اسماعيل بن يوسف، (عاش في العصر الغرناطي)
بيوتات فاس الكبرى. طبعة الرباط 197 دار المنصور.
- 4 - ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد (تونس 732 هـ - القاهرة 808 هـ)
تاريخ ابن خلدون المعروف بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر. الجزء السابع
طبعة بيروت 1979
- 5 - ابن خلدون: المقدمة . طبعة بيروت 1979
- 6 - عذاري : ابن أبو عبد الله محمد المراكشي (ت + 712).
البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب. الجزء الاول. تحقيق ج . كولان وليثي .
بروفنسال . طبعة بيروت 1980 (الثانية)
- 7- ابن عذاري: القسم الخاص بتاريخ الموحدين. تحقيق إبراهيم الكتاني، محمد زنيبر،
محمد بن تاويت وعبد القادر زمامة، طبعة البيضاء 1985.
- 8 - الادريسي: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس (سبته 493 هـ - سنة
560 هـ)، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس. مأخوذة من كتاب نزهة
المشتاق. نشر دوزي De Goeje طبعة ليدن 1894
- 9 - البكري : أبو عبد الله (1040م 1094م).
المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب. طبعة الجزائر 1911
- 10- البيلدق : أبو بكر بن علي الصنهاجي (عاش في النصف الاول من القرن السادس
الهجري):

أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين. طبعة الرباط 1971 دار المنصور

11- الحميري : أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم الصنهاجي (ت 710 هـ) :

الروض المعطار في خبر الاقطار.

تحقيق إحسان عباس. طبعة بيروت 1984 (دار القلم)

12- العهري : أبو عبد الله بن محمد الحياحي : الرحلة المغربية

تحقيق محمد الفاسي. طبعة الرباط 1968

13- مؤلف مجهول (عاش في القرن السادس الهجري) :

كتاب الاستبصار في عجائب الامصار. وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب.

نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد. طبعة البيضاء 1985.

14- الناصري: أبو العباس أحمد بن خالد بن محمد (سلا 1250 هـ سلا 26 جمادى

الاولى 1315 هـ)

الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى. الاجزاء : 2 ، 3 ، 4

15- الوزان ، الحسن بن محمد الفاسي المعروف بهجان ليون الافريقي

(غرناطة 888 هـ 957 هـ)

وصف افريقيا. الجزء 1 و 2

الترجمة العربية لمحمد حجي ومحمد الاخضر. طبعة الرباط 1980 وطبعة الرباط

1982

ثانيا: المراجع والدراسات الحديثة

16- ابن سودة ، عبد السلام بن عبد القادر المري: دليل مؤرخ المغرب الاقصى

الجزء الاول. طبعة البيضاء 1960

17- أبو ضيف، مصطفى أحمد (دكتور): أثر القبائل العربية في الحياة المغربية

خلال عصري الموحدين وبنو مرين (524 - 876 هـ): طبعة البيضاء 1982. دار

النشر المغربية

18- إسماعيلي، مولاي عبد الحميد العلوي (دكتور): تاريخ وجدة وأنكاد

في دوحه الامجاد. الجزء الاول. طبعة البيضاء 1985. مطبعة النجاح الجديدة.

19- عبد العزيز بنعبد الله (دكتور): معلمة المدن والقبائل. طبعة المحمدية

1977. مطبوعات وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية.

- 20- سارة منيعة: التكوين الوظيفي للمدينة الاسلامية. مجلة الفكر العربي. أكتوبر
نوفمبر 1982 العدد 29. ص ص 134 - 152.
- 21- سعيد عهد الفتاح عاشور (دكتور): حضارة ونظم أوروبا في العصور
الوسطى طبعة بيروت 1976. دار النهضة العربية.
- 22- طه الولي: المدينة في الاسلام. مجلة الفكر العربي. العدد 29. أكتوبر - نوفمبر
1982 ص ص 108 - 133
- 23- عهد الله أبو العياش: أزمة المدينة العربية . طبعة الكويت 1980
- 24- عز الدين أحمد موسى (دكتور): النشاط الاقتصادي في المغرب الاسلامي
خلال القرن السادس الهجري . طبعة بيروت 1983 دار الشروق.
- 25- قدور الورطاسي: المطرب في تاريخ شرق المغرب. طبعة الرباط 1984
- 26- قدور الورطاسي: معالم من تاريخ وجدة. الرباط 1972
- 27- ماكس فيبير: المدينة، معناها وشروطها. مجلة الفكر العربي العدد 29 أكتوبر -
نوفمبر 1982 ص 8 - 26. ترجمة رضوان السيد
- 28- مجموعة من الدارسين: المدينة الاسلامية. ترجمة أحمد محمد تعلق، طبعة
اليونسكو 1983.
- 29- محمد المتوني: ورقات عن الحضارة المرينية. طبعة الرباط. (مطابع الاطلس) دون
تاريخ

مراجع أجنبية:

- 30 - KHANBOUBI (M): Les premiers Sultans Merinides. 1269 - 1331.
Histoire politique et sociale. ed, l'harmattan. Paris 1987
- 31- PIRENNE (H): La ville au moyen âge, Essai d'Histoire économique et
sociale, Bruxelles, Lamartin, 1927.
- 32- TERRASSE (H): Histoire du Maroc des origines à l'établissement du
protectorat Tome I. ed Casablanca 1946.